الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

علاقة الخوف بنمو الاطفال

د. رضا الموسوي
اكاديمي

الخوف fear ful هو عاطفة قوية غير محددة سببها ادراك خطر ما ويرى احمد راجح عزت ان بعض المخاوف لدى الطفل تظهر لدى الطفل نتيجة عملية النضج الطبيعي اي النمو الذي يتوقف على العوامل الوراثية لدى الفرد وتكوينه البايولوجي ولا تحتاج الى ممارسة او تدريب او تعلم خاص فعندما يولد الطفل فانه سيكون عرضة لاستجابات متعددة لمؤثرات العالم الخارجي الذي يعيش فيه وهذه الاستجابات تختلف باختلاف المثير وشدة تأثره الطفل به فالأصوات العاليةتجعله يصرخ ويقوم بحركات دفاعية معينة تحاشياً للخطر. وكذلك شدة الضوء مثلاً تجعله يحرك عينيه بسرعة ان مثل هذا السلوك الذي يتخذه الطفل تجاه تلك الأحداث يسمى خوفاً.

فالخوف هو مجموع الحركات والصراخ وتغييرات اللون واتساع حدقة العين وسرعة ضربات القلب التي تقترن بالخطر المفاجئ يعبر عنها الطفل وهي ردود جسدية تعد حالة من النضال للتخلص من مثير يؤلم أو يهدد حياة الطفل.

وهنالك ثلاثة عوامل معروفة في مخاوف الاطفال هي:

١- الجروح الجسدية . العمليات الجراحية .الحروب. الخطف

٢- مخاوف اخرى مثل الحوادث الطبيعية . كالعواصف . الاضطراب . الظلام الموت..وتقل هذه المخاوف مع التقدم بالعمر.

٣- مخاوف نفسية مثل الضيق .الامتحانات . الاخطار . الحوادث الاجتماعية . المدرسة

فنحن نحكم على الطفل الخائف عندما نلاحظ ظهور فزع عميق في ملامح الوجه عامة تتبعه رعشة وصراخ مصحوب بتغيرات عضوية داخلية مما يؤدي في النهاية إلى ارتجاف الشفتين والتلعثم في الكلام. ولا يقتصر الخوف على الصغار وحدهم بل كثيراً ما يحدث عند الأحداث والراشدين ويعد الخوف إحدى القوى الفاعلة في بناء الشخصية أو هدمها فقد يؤدي إلى تشتيت الطاقة العقلية المتجهة إلى هدف ما كما قد يوجه الفرد إلى الطريق الصحيح ويدفع عنه القوى المؤذية.

وقد دلت البحوث على أن الطفل الذي لم يتعرض للمؤثرات الخارجية كما يتعرض غيره من الأطفال لا يبدي خوفاً في الظلام إذا ما لامس بعض الحيوانات أو الطيور أو حتى الأشياء المجسمة. كما دلت هذه البحوث أيضاً على وجود شيئين يثيران الخوف عند الرضيع خاصة. وهما الضوضاء العالية وزوال ما يستند إليه فإذا ما اقترن مثير آخر كالظلام أو حيوان أو نار بأحد هذين المثرين نتج الخوف في المناسبات المتتالية كلها إذا ما تكرر هذا الاقتران عدة مرات –ويطلق على الخوف في هذه الحال اسم (الردود الانفعالية الشرطية) –ويصبح الخوف من الكلب هو الخوف من نباحه قبل الخوف من عضته.

ان شعور الطفل بالخوف عندما يترك وحده للمرة الأولى في الظلام لايعزى الى الظلام نفسه وإنما السبب الحقيقي هو شعور الطفل بالانفصال والوحدة الذي كثيراً ما يقترن بالظلام. وبالمقابل ليس الحيوان هو الذي يسبب الخوف للطفل وإنما صوت الحيوان الذي كثيراً ما يقلده الوالدان في أثناء تقدمة الدمى الحيوانية إلى الطفل.

من الملاحظ ان الخوف لا يحتاج الى ممارسة او تدريب وهذا يعني اظهار علامات الخوف هو الذي لايحتاج الى تدريب او تعلم خاص ولكن هنالك نظرية في هذا المجال لسيلغمان Seligman.M ١٩٩٣.تسمى نظرية العزو Attributionترى ان هنالك مؤشرات قوية تدل على امكانية نقل الكثير من الحالات كالفشل والخوف وغيرهما من الامور الى الاخرين وخاصة لمن هم تحت رعايتنا كالاولاد وهذا كما يراه سيلغمان في كتاباته يعود لاسلوب التفكير الذي يمارسه الفرد في مواجهة المواقف المزعجة . ويلعب التقليد دوراً هاماً في مخاوف الأطفال . فالأطفال لا يقلدون والديهم في الأخلاق والعادات الاجتماعية فحسب وإنما يمتد ذلك إلى المواقف الانفعالية التي يتخذها الأطفال حيال أي موقف رأوا أهلهم فيه. فالأم التي تخاف من الظلام أو الحيوانات أو النار.. الخ يمكن أن تخلف هذه المخاوف في ولدها صورة نماذج من السلوك يقوم الطفل بتقليدها ومحاكاتها لذلك ينصح الآباء والأمهات الذين يعانون من بعض المخاوف بألا يظهروها أمام أطفالهم لأنها ستنعكس وربما بشكل دائم في تصرف الطفل وهو يواجه المواقف المماثلة.

وكثير من المخاوف التي قد يتعرض لها الطفل هي من النوع الهدام الذي لا يجديه نفعاً بل يفتت نشاطه ويشل فعاليته. ويلعب التقليد هنا دوراً كبيراً في تكوين هذه المخاوف نتيجة لعلاقة الطفل بوالديه إذ يجد الآباء أحياناً أن الخوف من الطرق المجدية في فرض الطاعة وتنفيذ الأوامر. ولكن هذا ليس أساساً صحيحاً للتحكم بسلوك الطفل بل إن مثل هذه التجارب قد تترك وراءها ندوباً وآثاراً سلبية في تصرفات الطفل قد يصعب التخلص منها.

ومن السهل جداً أن يصير الخوف طاغية متكمنة من عقل الطفل إذا ما تابعنا التلميح والإيحاء له بإمكانية تعرضه للخطر إن كثيراً من الآباء لا ينفكون عن تحذير أطفالهم وتنبيههم إلى الأخذ بلون ما من النشاط والامتناع عن غيره حتى لا يصيبهم إلى الأخذ بلون ما من النشاط والامتناع عن غيره حتى لا يصيبهم الأذى ويعتاد الطفل على سماع عبارات محددة مثل : لا تتسلق الشجرة لئلا تقع سيخطفك الشحاذ إذا خرجت من البيت –إذا أكلت الحلوى ستصاب بالمرض –سوف تتركك أمك وحيداً إذا كنت شقياً وغير ذلك من عبارات التخويف. وقد يكون هذا التحذير وسيلة مؤقتة للتهذيب لكنها ليست ذات أثر طيب في غرس السلوك الحميد. ولحسن الحظ فإن كثيراً من الأطفال سرعان ما يكتشفون زيف هذه التحذيرات ويتصرفون حيالها على أنها ليست كذلك. ومع أن الخوف وسيلة مجدية أحياناً في ضبط الطفل ضبطاً مؤقتاً غير أنه من الخير للآباء أن يوقنوا بأن أطفالهم قادرون –وبخبرتهم الخاصة –على اكتشاف الخداع والتهديد من جانبهم هو دليل واضح على ضعفهم وقلة درايتهم في معالجة المواقف بشكل صريح وإيجابي يحقق مصلحة الآباء والأبناء.

وليتذكر الآباء أنهم ما ربطوا عنصر الخوف ببعض المواقف أو الأشخاص أو الأشياء بهدف إخافة الطفل أو إرهابه فإنهم لا يلحقون به ظلماً كبيراً فحسب بل أنهم في ذلك يحطمون ثقته بوالديه. لذلك يجب ألا تكون انفعالات الأطفال مجالاً للاستغلال والاستخفاف لأن ذلك لا يقل خطورة عن العبث بإحدى حواس الطفل التي يجب على الوالدين العناية بها والمحافظة عليها و لنأخذ طفلاً نشأ مع أم تقفل الأبواب بضوضاء شديدة وتتكلم بصوت عال فإذا لم تكن طريقتها سارة في تقديم الطعام للطفل فمن الجائز أن تصبح هي نفسها مبعثاً للخوف خاصة وقت الطعام ولهذا نجد أن بعض الأطفال يقبلون على الطعام من أمهاتهم ولا يقبلونه من مربياتهم أو بالعكس وقد يألف الرضيع شخصاً ما ويقبل عليه بينما ترتعد فرائصه خوفاً من شخص آخر وكثيراً ما يخاف الأطفال من بعض الأشياء التي تقترن بالضوضاء إذا ما تكرر هذا الاقتران وأصبح حقيقة راسخة في ذهن الطفل. فهناك طفلة على سبيل المثال أضناها المرض لأن أبويها كانا يتشاحنان كثيراً أمامها في صراخ وضوضاء ليلاً وحينما أزيل السبب وسوى الوالدان النزاع فيما بينهما تحسنت حالة الطفلة الصحية وعادت إلى وضعها الطبيعي. غير أن هناك مخاوف أخرى أكثر تعقيداً تنشأ في نفس الطفل وتنمو مع في محيط الاسرة والعائلة فقد يشعرالطفل بخوف عميق بسبب شعور يراوده بأنه مهمل من قبل ابويه او مربيته فيتجسد الخوف عنده على شكل ثورة يتبعها غضب ان لم تزل مثيراته فسيتحول الى كراهية وانعدام رضى . قد يكونان شديدين لكن الطفل يخفي اثرهما من دون وعي منه كوسيلة دفاعية منه ورغبة في الانصياع لقانون حماية الاسرة وهذا ما سيجعل منه عرضة للكبت الذي لاتحمد عقباه.

وبالامكان تقسيم مخاوف الأطفال إلى نوعين وفقا لدرجة نموهم ويعد النوع الاول بسيطا لانه يتعلق بدافع المحافظة على البقاء ويشمل مخاوف الأطفال العادية التي تنتابهم يوميا ويمكن ملاحظتها ببساطة كخوفهم من الظلام والسعلاة وبعض الحيوانات واللصوص. فالطفل يرى في الظلام نوعاً من الوحدة او الانفصال الذي يقوي سعوره بانه وحيد يفتقد الى الطمأنينةوينتابه توقع بحدوث أخطار وبالامكان تسمية مثل هذا النوع من المخاوف بالخوف من المجهول. ومن المكانزمات او الوسائل الدفاية التي يستخدمها بعض الاطفال لطرد مثل هذه المخاوف قيامهم بالغناء او الصفير الخفيف عند صعود الدرج في الظلام اولتعزيز احساسهم بالطمأنينة وهذه الوسائل الدفاعية هي التي تدفع البسطاء الى قراءة التعاويذ للتخلصمن الخطر الكامن في الظلام او بعض الظواهر الجوية او الهزات الارضية. ولعل مقولة فداوها بالتي كانت هي الداء من القواعد التي يؤيدها علماء النفس لمعالجة خوف الاطفال من الظلام وذلك بجعلهم يألفونه بتعويد الطفل النوم وحده نوما هادئا.والخوف من الحيوانات ورجال الشرطة والأطباء والأماكن العالية كلها من المخاوف الموضوعية البسيطة الأكثر شيوعاً وعلى الآباء أن يعرفوا ذلك ليسهل التغلب على الخوفعن طريق جعل الطفل يألف موضوع خوفه.

ومن الجدير ذكره ان هذا النوع من علاج الخوف يجب ان يتم بصورة تلقائية وعامل الزمن فيه يعد ذا اهمية فلا يجب ان ندفع الطفل الى مواقف لها مثيرات خوف في نفسه كعملية لجعاهم يتغلبون على خوفهم وقد يكون الخوف االمتصل بالتجارب الحقيقية في مرحلة الطفولة أمراً ضرورياً للإبقاء على النفس وتوجيه السلوك وهنا لابد من التنبيه الى ضرورة عدم الإسراف في إثارة مثل هذه المخاوف لان زيادة وقعها سيكون عامل اعاقة لنشاط الطفل

أما النوع الثاني من المخاوف فيرتبط بالشعور بالأثم في نفس الطفل نتيجة لصلته بالقائمين على توجيه سلوكه. إن أطفال الآباء الهادئين ينشؤون غير هيابين ويرجع ذلك إلى رزانة عقولهم أولاً وتنظيم انفعالاتهم ثانياً مما يجعلهم قدوة حسنة لأطفالهم يسرعون في تقليدها. يضاف إلى أن الآباء الهادئين يثيرون في نفس الطفل شعوراً بالخير يمكن أن ينغص حياته ويتحول إلى ضمير له مطالب مرهقة. وتعد القصص الخرافية أشكالاً جميلة يحاول الطفل من خلالها التعبير عن آماله وشكوكه بالنسبة إلى الراشدين المحيطين به وتشمل أغلب مخاوفه فيجد فيها التنين والمردة وأغرب من ذلك أيضاً حيث تتحول الوحوش إلى بشر. إن تلك القصص تغذي خيال الطفل ولكنها لا تخلقه فهو يؤلف القصص بمحض إرادته وطبيعته ومع ذلك فإن تنقية خيال الطفل من الأشياء المخيفة المرعبة تتطلب العناية بتربيته في السنوات الأولى وتعويده ضبط نفسه بعيداً عن الصرامة الشديدة.

والخوف انفعال تسهل استثارته بوسائل وطرق شتى وله آثار بعيدة المدى على الآباء أن يحذروا منها ويحاولوا تجنبها في الأوقات جميعها. وهنا لا بد أن نشير إلى صعوبة فصل الخوف عن العقاب في تربية الأطفال وأن نتساءل إلى أي حد ينبغي أن يكون الخوف عاملاً في التهذيب الاجتماعي ؟

في الواقع أن موقف الطفل تجاه العقاب يجب ألا يكون قائماً على عدم المبالاة من جهة أو الهلع والخوف من جهة أخرى. بل يجب أن يتسم الموقف بنوع من الاهتمام أي أن يكون مصطبغاً بعنصر لخوف إلى حد ما فإذا لم يشعر الطفل بالاضطراب إزاء عمل ينافي القواعد الاجتماعية وإذا لم يحفل الصغير بسخط أهله لسوء تصرفه في موقف ما فهو شخص يصعب أن نكون فيه قيماً وعادات تؤدي به إلى التوافق أو التكيف الاجتماعي

ومن الجدير بالذكر أن الحذر ليس إلا نوعاً من الخوف ضرورياً وملازماً للنجاح. فكلما أقدم الطفل على خبرة جديدة لازمه نوع ما من الخوف يتجلى في كثير من ألوان الشك والحيطة مثله في ذلك مثل الكبار الذين يتوقعون الإخفاق وقد يصل إلى درجة تمنع تحقيق أهدافه وتؤدي إلى الخيبة وعليه فان الخوف من المظاهر الطبيعية لدى الأطفال جميعهم وهو من الأمور المستحبة إذا كان في الحدود المعقولة إذ يمكن استخدامه وسيلة لحماية الطفل من الحوادث التي يمكن أن يتعرض لها. أما إذا زاد على حدود التحذير والتوجيه وسبب قلقاً كبيراً للطفل فسيكون عندها مشكلة يجب معالجتها بالسرعة الممكنة وبكل ما لدينا من وسائل

دلت بعض الدراسات على ان نسبة الخوف بوجه عام عند الإناث أكثر منها عند الذكور أي أن الإناث أكثر إظهاراً للخوف من الذكور. كما تختلف شدة الخوف تبعاً لشدة تخيل الطفل. إذ تتناسب شدة الخوف طرداً مع شدة الخيال فكلما كان الطفل أكثر تخيلاً كان أكثر تخوفاً

ينتقل الخوف من ألم العقاب والشخص الذي يوقعه إلى انفعالات الطفل ومشاعره المتأججة وهو يعلم أنها محظورة عليه ويخاف الطفل في هذه الحال من نفسه وكثيراً ما يحدث هذا النوع من الخوف عند العصابيين الذين يخشون سيطرة الأهواء أو النزعات وقد يحدث الخوف نتيجة لمثير داخلي يرتبط بشيء خارجي قد لا يكون ضاراً في حد ذاته فهناك طفل في العاشرة من عمره مثلاً يخاف من الوحدة على الرغم من أنه نبيه شديد الحذر في تصرفاته فقد دخل ذات يوم إلى المطبخ صباحاً فلم يكد يفتح الباب حتى سقط حزام أبيه المعلق فوق الباب على كتفه فارتعدت فرائصه وانطلق مسرعاً من دون أن يدخل المطبخ ومنذ ذلك الموقف ابتدأ خوفه وأصبح لا يطيق البقاء وحيداً لأنه يرى أيدي ممتدة من خلف الأبواب وأشباحاً تتراقص في الغرفة لترعبه ولدى البحث تبين أن والد الطفل سيد مطاع له طريقة في التأديب يفخر بها وهو يحب أطفاله وخاصة هذا الطفل الذي يعجب بأبيه أيضاً

وتدل أبحاث جيرسيلد (A.T. Jersild) وهولمز (١٩٣٥)(F.B.Holmes. على أن مخاوف الطفل تتأثر بمستوى نضجه ومراحل نموه. فالطفل في نهاية عامه الثاني لا يخاف من الأفعى وقد يحلو له أن يمسكها ويلعب بها. وهو في منتصف السنة الرابعة يخشى منها ويبتعد عنها ثم تتطور هذه الخشية في نهاية سنته الرابعة إلى خوف واضح شديد بينماأكدت دراسات –هاغمان (١٩٣٢ (F.R.Hagmen.أن مثيرات الخوف عند الطفل فيما بين الثانية والسادسة من سني حياته تتجلى في الخوف من الخبرات الماضية المؤلمة . كالخوف من علاج الأطباء والخوف من الأشياء الغريبة كالحيوانات التي لم يعتد عليها الطفل من قبل والخوف مما يخشاه الكبار فهو يقلد أهله وذويه في خوفهم من العواصف والظلام والشياطين أي أن الطفل يتأثر في مخاوفه بأنماط الثقافة التي تسيطر على بيئته وقد تنشأ مخاوف الأطفال بسبب ما يصادفونه في خبراتهم نتيجة للأخطاء التربوية التي يرتكبها الوالدان في أحيان كثيرة. فهناك أولاً المخاوف التي تهدف إلى حماية النفس وهي بمثابة النذير بالخطر من جهة والدافع الذي يحرك المرء ويهيئ له سبل الفرار من الضرر الذي قد يقع عليه من جهة أخرى وثانياً المخاوف الخارجة عن طبيعة الطفل وتنشأ عن الأشياء الموضوعية نتيجة احتكاكه بالمشرفين على رعايته ونموه ذلك النمو الذي يتطلب خضوع السلوك بمظاهر كلها لقواعد نظامية تنتهي إلى حياة اجتماعية منتظمة و من الصعوبة أن يقف الوالدان على كل خبرة قد تكون مبعثاً للخوف عند أطفالهما ولكننا نستطيع أن نقول : أن الأباء الذين ينالون ثقة أطفالهم يمكنهم الوقوف على مخاوف صغارهم حالما يشعرون بها تقريباً. ويستطيعون في هذه الحال أن يقدموا لهم التوجيه والعون وكل ما يستطيعه الأب الحصيف وقاية الطفل من التجارب التي تبعث الخوف في نفسه وإذا وقعت وجب عليه أن يعمل جاهداً للقضاء على تلك المخاوف في أقرب وأسرع وقت ممكن.

وبشكل عام فان معظم الاطفال تنشأ لديهم مجموعة من النخاوف بعضها من البيئة وهي من نوع المخاوف الآمنة . ولكن المخاوف عير المعقولة Irrationalيجب عدم تشجيعها فهذه المخاوف لا لاتزال ببساطة . فالعقاب اوالتجاهل لايجديان نفعا في هذا المجال. ان المخاوف المحددة قد تقود الى مشاعر عامة من القلق وعدم الامن والهواجس (fore booding)او من قلق عائم ويجب اخذها بمدى خطورتها ومن الدراسات النفسية الحديثة التي اجريت في هذا المجال وجدت ان الاطفال الذين يشاهدون افلام العنف في التلفزيون غالبا ما يعانون من مخاوف اكثر من الاطفال الذين لم يتعرضوا لمثل هذا النوع من الافلام

صنع في اليابان

د. عبدالله المدني
محاضر اكاديمي - البحرين

خصصت مجلة "جابان بلاس" الشهرية التي تعنى بشؤون المجتمع الياباني وثقافته ودور اليابان في المجتمعات الآسيوية أحد أعدادها الأخيرة للحديث عن المنتج الياباني وتاريخ تطوره منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية، وصولاً إلى تأكيد حقيقة لا جدال فيها هو أن هذا المنتج صار اليوم وبعد مرور أكثر من نصف قرن على اجتياحه للأسواق العالمية يحتل موقعا رائدا في خيارات المستهلك أينما وجد، إن لم يكن هو خياره الأول، وذلك بفضل جودته ومتانته وما استثمر فيه من إبداعات وتقنيات وأبحاث.

دخلت البضائع اليابانية منطقة الخليج للمرة الأولى في أواخر خمسينات القرن الماضي، يوم كان المنتج الأوروبي والأمريكي من السلع الاستهلاكية الحديثة هو المهيمن على الأسواق، وكانت النظرة السائدة لدى جمهور المستهلكين وقتذاك انه لا خير في سلعة من تلك السلع لجهة الجودة والمتانة إن لم تكن واردة من الغرب المتقدم. والذين عاشوا تلك الحقبة لا بد من أنهم يتذكرون كيف أن المستهلك كان يهجر المنتج الياباني المعروض من بطاريات ومصابيح ومراوح وأجهزة تسجيل وراديو وتلفزيون لمصلحة مثيله المصنوع في الغرب بدعوى أن الأولى مقلدة وبالتالي لا بد من ان تكون اقل جودة واقصر عمرا.

وهكذا كان السؤال الأول للمستهلك العازم على شراء جهاز راديو أو تلفزيون مثلا هو عن ماركة "فيليبس" الهولندية أو ماركة "غروندغ" الألمانية أو ماركة "باي" الإنجليزية ، وليس عن "توشيبا" أو "سوني" أو "ناشيونال". ويصدق القول نفسه ولذات الأسباب على سلع اقل تعقيدا مثل البطاريات التي كان المستهلك لا يرضى بالمصنوع منها في اليابان من نوع "افريدي" أو ما اصطلح على تسميته شعبيا ببطاريات القطة، كبديل لبطاريات "بريك" الألمانية، ومكائن الخياطة التي لم تستطع اليابانية منها من ماركة "مرديكا" اقتحام السوق إلا بشق الأنفس بسبب تفضيل المستهلك لماركة "سنجر" الإنجليزية. أما المركبات اليابانية فلم تكن قد وصلت بعد إلى أسواق الخليج –بل لم تكن اليابان في حينه تصنع سوى سيارة شعبية صغيرة تحت اسم "سوبارو ٣٦٠ " من إنتاج شركة فوجي للصناعات الثقيلة التي كانت قد بدأت أبحاثها في عام ١٩٥٥ وطرحت أولى سياراتها في عام ١٩٥٧ - وإلا كان حظها مشابها في ظل هيمنة المركبات الأمريكية والألمانية والإنجليزية على الأسواق المحلية.

وقتها كانت السلع اليابانية مقلدة بالفعل، وكان أصحابها لا يجدون حرجا وهم في بداية مشوار استعادة قوتهم الصناعية والتكنولوجية بعد حرب مدمرة، في الاعتراف بذلك، خاصة أن عملية التقليد والمحاكاة ظلت على الدوام جزءا من منظومة القيم الثقافية اليابانية ووسيلة لتعويد النشء على التأمل ومعرفة كنه الأشياء غير الدارجة وصولا إلى خلق ما هو أروع وأتقن.

غير أن هذا لم يستمر طويلا. فمن جهة كثفت المصانع اليابانية جهودها وأبحاثها لوضع بصماتها وتقنياتها الخاصة على ما تنتجه كي تبدو متميزة وأكثر إغراء عند المستهلك، مع إنفاق جزء معتبر من أرباحها المتأتية من حقبة الازدهار الاقتصادي في الستينيات على البحوث الميدانية في أقطار شرق آسيا لاستطلاع آراء جمهور المستهلكين في المنتج الياباني وملاحظاتهم حولها كي يصار إلى تقديم هذا المنتج بطريقة تلبي رغباتهم وتتوافق مع ظروفهم واستخداماتهم بصورة أفضل. ولعل أفضل مثال يمكن إيراده في هذا السياق ما قامت به شركة "توشيبا" التي ابتكرت قدور طهي الأرز –الوجبة الرئيسية للسواد الأعظم من الآسيويين –الاوتوماتيكية في عام ١٩٥٥، ثم راحت تعدل فيه وفقا لنتائج أبحاثها الميدانية في هونغ كونغ وتايوان ودول جنوب شرق آسيا حتى غدت سلعة فائقة الإتقان والسرعة ومتعددة الاستعمالات ولا غنى عنها عند ربات البيوت الآسيويات وغيرهن.

ومن جهة أخرى، راحت الشركات اليابانية المصنعة تستثمر عقول ومواهب أبنائها في اكتشاف الجديد وإنتاجه ومن ثم التفرد بطرحه في الأسواق. حدث ذلك مثلا حينما طرحت اليابان ابتداء من عام ١٩٥٨ من خلال شركة "سوني" الرائدة أجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة حجما والخفيفة وزنا، فأحدثت في حينه ثورة شبيهة بثورة المعلوماتية والاتصالات التي نعيشها اليوم، ويسرت للملايين من البشر عبر القارات الاستمتاع ببرامج الإذاعة في أي وقت ومكان، مخلصة إياهم إلى الأبد من متاعب أجهزة المذياع الضخمة وأسلاكها وهوائياتها بدليل بيع أكثر من نصف مليون جهاز خلال الأشهر الأولى من الإنتاج.

وحدث ذلك أيضا بعد نحو عام من ذلك حينما بدأت شركة نيكون اليابانية في إنتاج وتسويق آلات التصوير الاوتوماتيكية ذات العدسات المتنوعة فائقة الدقة، فكانت تلك نقطة البداية لثورات ستتوالى في عالم التصوير الفوتوغرافي، وكل ثورة عليها بصمة يابانية متميزة تنم عن مقدرة فذة في الخلق والابتكار والإضافة. وقتها لم تجد صحيفة أمريكية مرموقة كالنيويورك تايمز إلا أن تقر بفضل اليابانيين وأسبقيتهم في مجال صناعة الكاميرات وتطويرها.

في هذه الأثناء، وطبقا لما ذكره رجل الصناعة الياباني البارز وأحد أقطاب شركة سوني للالكترونيات "أكيو موريتا" في الكتاب الذي يحكي فيه قصة هذه الشركة العملاقة، كانت الأخيرة تنفق الملايين على الأبحاث والتجارب وتواصل الليل بالنهار من اجل إنتاج سلعة بدت في حينه صعبة المنال، لكنها اليوم منتشرة وتباع بأبخس الاثمان من دون أن يسأل مستهلكها عن العذابات والاحباطات التي واجهها صناعها الأوائل حتى غدت حقيقة، ونعني بهذه السلعة أشرطة الكاسيت التي تفتخر اليابان بأنها أول من صنعتها وطرحتها في الأسواق مع أجهزتها ابتداء من منتصف الستينات كبديل للمسجلات الكهربائية الضخمة وبكراتها الكبيرة. غير أن "سوني" لم تكتف بتلك المعجزة، فواصلت جهودها وابتكاراتها في عقد السبعينيات، إلى أن أضافت منجزا آخر إلى إنجازاتها في حدود عام ١٩٨١، وذلك حينما طرحت في الأسواق أجهزة التسجيل والاستيريو النقالة الخفيفة المسماة "ووك مان".

وتحت عنوان "صنع في اليابان" يمكن للمرء سرد قائمة طويلة من الإنجازات التي تحكي تاريخ مسيرة طويلة تحول خلالها هذا البلد العظيم من مقلد إلى مكتشف ومصنع متميز يتسابق المستهلكون في أرجاء العالم إلى اقتناء منتجاته وتفضيلها على غيرها، لكننا سنكتفي بالإشارة إلى أن اليابان لئن كانت لا تزال تنتج وتصدر ما بدأته في الخمسينيات والستينيات، فإنها تقتفي أيضا سياسة بديلة قوامها ترك أمر إنتاج تلك السلع الاستهلاكية للأقطار الآسيوية الصاعدة بترخيص منها وباستخدام ما تتمتع به تلك الأقطار من مزايا نسبية لجهة الموارد الأولية والعمالة الرخيصة، فيما هي تستثمر ما تراكم لديها من خبرات وتجارب وعقول في إنتاج السلع الأكثر دقة من تلك التي ينتظر لها أن تغير وجه الكون والبشرية في العقود القادمة. ولسنا في حاجة إلى القول بأن ما مرت به اليابان في البدايات مرت به كوريا الجنوبية في الثمانينيات والتسعينيات وتجاوزته بنجاح، وتمر به اليوم أقطار مثل الصين وماليزيا وتايلاند، التي حتما ستعبر جسر إنتاج السلع المقلدة الرخيصة إلى مرحلة إنتاج سلع تحمل بصماتها الخاصة في وقت قريب.